

رسالة المسلم

أنور الجندي

دار الاعتصام

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يقول الدكتور بورجيه : « ترك الاسلام على الاستيطان السكانى وعلى المسكن وعلى جغرافية المواصلات وعلى الحياة الاقتصادية والانماط المعيشة آثارا واضحة ، وهو بموازنته مع سائر الديانات الكبرى ، ما زال يترك أقوى الانطباعات على المشاهد وعلى الفعاليات البشرية ويحس أقل الباحثين بمجرد أن تطأ قدمه أرض بلد مسلم ، يحس فورا بجو خاص . فمن المغرب الأقصى الى أندونيسيا ومن استنابول الى زنجبار يحس الانسان بأنه فى (ارض الاسلام) فعلى الرغم من احتفاظ مئات المسلمين بتقاليدهم نجدهم يعيشون تحت (راية الاسلام المشتركة) ويظل هذا النغم الاسلامى الذى يكون تارة متحفظا وتارة اكثروضوحا يظل دائما ملحوظا وظاهرا . وتكفى ضخامة العالم الاسلامى العددية ان تبرر وجود الفروق الطفيفة العددية التى تتجلى فى الكتلة البشرية المعاصرة ، ولكن خلف تنوع البنى الاجتماعية والسياسية وخلف الاجتهادات فى داخل الاسلام فان عناصر الوحدة هى الغالبة ، كالتبعية الى نفس المجال الحضارى ، ذلك ان مسلمى القرن العشرين يشكلون جزءا من جمهرة الشعوب الغفيرة العديدة ، ومن خلال كفاحهم للتخلف تتجلى ارادتهم فى استعادة ثقافة مميزة لدرجة يمكن معها القول بأن الدول الاسلامية تشكل اليوم نموذجا من الجهد الذى تبذله الاقطار السائرة فى طريق النمو للتخلص من أغلال التأخر » .

وهكذا كانت ارض الاسلام وما تزال موضع دراسة دقيقة من الغـــرب وكاشفة بالرغم من كل عوامل التغريب والغزو الثقـــافى . وعلى أنها قادرة على الاحتفاظ بذاتيتها الخاصة ووجودها الأصيل . ويشعر آخرون الى ثبات الاثر الدينى والثقـــافى الذى تحمله اللغـــة العـــربية الى العالم الاسلامى ، والى تفوق هذا الاتصال وانها تبدو «التعبير المفضل لحضارة الاسلام وأداة نقل الايمان » اذ ينطق الناس بها أو يقرأونها على الأقل فى بعض الاوساط فى كل أرجاء أرض الاسلام ويأخذ البعض بعين الاعتبار ذلك النموالسكانى والتفوق البشرى ، وارتفـــاع نسبة التوالد لدى المسلمين الذى بلغ نسبة تتراوح بين ٢٥ ، ٣٠ فى الألف .

وهناك دراسات واسعة حول الفتح السلمى للاسلام فى افريقيا وجنوب شرق آسيا .

وأشار باحثون آخرون الى الأثر الذى يحدثه دخول قبيلة من قبائل افريقيا فى الاسلام فيقول :

« متى دخلت قبيلة من السودان فى الاسلام اختفت عنها فى الحين الوثنية وعبادة الشيطان وعبادة البشر واكل لحـــم الانسان وتقديم الضحـــايا البشرية وقتل الاولاد والسحـــر وصاروا يرتدون الثياب وحلت فيهم النظـــافة وشعـــروا بالعظمة واحترام النفس وصار قرى الضيف عندهـــم من الواجبات الدينية وندر شرب المسكرات وحرم القمار والرقص المنافى للعفـــة وفوضى اختـــلاط الجنسين وصارت طهـــارة العرض من اعظم الفرائض وذهبت البطالة والكسل وحل العمل والكد محلهما وتغلب النظام والرزانة على الشقاق

وحرمت القسوة على الحيوان والعبيد وتعلموا الشعور بالانسانية واللطف والأخوة ودخل الرق وتعدد الزوجات تحت قانون يحد شرهما ويخففه .

وفوق ذلك كله فالاسلام اقوى واكمل دين اجتماعى فى القناعة والاعتدال فى تناول اللذات ، مهما امتدت الحضارة الأوربية واتسعت وامتدت معها الرذيلة واحتقار الناس ، أما الاسلام فان تمدنه خال من غمط الناس واحتقارهم فهو خاص على تعلم الكتابة والقراءة ولبس الثياب اللائقة والنظافة البدنية والصدق وعزة النفس .

ان تمدين الاسلام وتقويمه للنفوس لعجيب — يجب أن نأخذ فى الاعتراف بالحقيقة وهى ان الاسلام ليس عدوا للنصرانية — الاسلام نسخة طبق الاصل من دين ابراهيم وموسى ، أما اليهودية فهى دين خاص ، أما الاسلام فهو دين عام لجميع الأقوام ليس منحصرا مثل اليهودية فى شعب واحد بل عام شامل لجميع أهل الأرض . والمسلمون يؤمنون بأربعة معلمين عظام : ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وليس فى تعاليم محمد شىء يعادى النصرانية أو يضادها ، لقد جاء الاسلام فجرف الخرافات الفاسدة وكان خصما شديدا للتبتل المزعوم ، انه تاج التقوى ، وجاء بعقيدة الدين الأصلية ، توحيد الله وتعظيمه وابدال التبتل والرهبانية بالرجولة ، وفتح باب الأمل للرقيق ، وباب الاخوة للنوع الانسانى واعتراف بالحقائق الجوهرية للطبيعة البشرية . والفضائل التى يعلمها الاسلام هى التى يمكن للشعوب المنحطة أن تفهمها : الاعتدال فى التمتع باللذات والنظافة والعدل والصبر والشجاعة والاحسان والضيافة والرضا بالقضاء

فأمكنهم أن يعلموا أصـــول الفضـائل الأربع ، وأن يجتنبوا السيئات المهلكات . ان الاسلام يعلم أخوة عملية ، والمساواة الاجتماعية التامة بين جميع المسلمين » .

ان هـــذه الصورة تعطى ذلك التميز الخاص للاســـلام وللتركيب الاجتماعى الذى يقيمه على ارض الاسلام . ويرمز الى عالميته الخالدة التى كانت واضحة منذ اليوم الأول . ففى أيام مكة الشديدة القاسية ، والمسلمون فى أشد الأذى ، ينزل الحق تبارك وتعالى عليهم سورة الروم : يشرح لأهل مكة الذين كانوا يعذبون وليس أمامهم ضوء واحد للنصر يقدم لهم التخطيط العالمى لأحوالهم ويوجههم الى دراسة التاريخ .

« ألـــم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعـــد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله » .

وكانت الروم قد هزمت بقيادة الفرس وجاء القرآن ليقرر انه فى بضع سنين سينتصر الروم على الفرس ويفرح المؤمنون بالنصر لان الروم اهل كتاب ثم لا يلبث الـــروم المنتصرون بضـــع سنين أخـــرى حتى يهزمهم المســـلمون ويستولون على الشام وهم فى أوج قوتهم ، ليس فى مرحلة ضعفهم كما يحاول الاستشراق أن يصـــور الروم فى ذلك الوقت .

وهكذا يصدق جورست : حين قال : لمسنا فى الاسلام طاقتين عجيبتين : هما التجدد والخلود ومن تكن له مثل تينك الخاصتين لا يفنى ولا يبيد .

وحق على المسلمين أن يعرفوا ذلك وأن يستمسكوا به فالاسلام لا يقبل التجدد وحـده أو المعاصرة ، أو الحداثة وانما يربط ذلك بالأصالة والقيم الاساسية . ولا يقر المسلمون مفهوم التحول المطلق الذى قال به سبنسر وهيجل ولا الثبات المطلق الذى قال به أرسـطو واللاهوتيـون ، وانما يقيم الاسلام منهجا أصيلا هو منهج الثوابت والمتغيرات . تقوم فيه حركة المتغيرات فى اطار الثبات ولذلك فان الاسلام لا يقر كلمة (أيدلوجية) لأنها مرتبطة بالتحول ولكنه يسمى نفسه منهجا متكاملا .

فالسر فى انتصار الاسـلام وتوسعه الذى امتد اليوم الى كل مكان فى القارات الخمس ، وفتوحه السلمية التى بلغت الان فى آخر تعداد الف مليون مسلم لا يمثل الفتح الاسلامى منها اكثر من مائة مليون والباقى مما فتحه الاسلام بارادته الذاتية وعلى مدى الزمن .

السر هو الفطرة ، هو التكامل ، هو التقاء الرغبات المادية ، بالاشواق الروحية ، هو تكامل النظرة فى عـلاج المشاكل فى الجمع بين المثالية والتجريبية ، وبين خطرة الفكر ونفثة الروح ، بين العقلانية والوجدانية فى اسلوب جامع وتوازن العقل والقلب .

وحين نقارن بين الفـكر الاسلامى الربانى والفـكر البشرى نجد الفارق العميق بين الاصالة والزيف وبين قدرة الخالق العارف للانسان الذى خلقه وبين الانسان العـاجز عن أن يشرع نفسه ، (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختـلافا كثيرا) فقـد قاسى أصحاب الأيدلوجيات من عجز مناهجهم عن مواجهة تغيرات البيئات والعصور ، فاذا هى

تقع فى تضارب وجمود وفساد وانحراف لانها من وضــــع العقل البشرى القابل للخطأ والانحراف .

أما ما وضعه الاســـلام فهو ثابت ثبوت فطرة الانسان ونظام الكون ، صالح لكل زمان ومكان ، لان مصـــدرها القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـــه . فقد أنشأ الاســـلام أمة : وسطى ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، وحدة انسانية عامة . فالناس جميعا من أصل واحد لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى ، والله وحده هو رب العالمين ، ودين الله الحق بالتوحيد هو عقيدتهم .

* * *

واليوم والعالم الاسلامى (مجتمعا وفكرا) يدخل مرحلة (الترشيد) بعد ان مر بمراحل التبعية والتقليد والنقـــل والانبهار بالفكر الغربى ، وبعد أن تراجع عن اندفاعته الأولى نحو الغرب والخضوع له ، وقد جاء هذا التراجع بعد ان اكتشف المسلمون والعرب امورا كثيرة :

اولا : ـــ

اكتشفوا ان مفهوم الغرب للحرية ليس مفهوما مطلقا ولا انسانيا عاما ولكنه مفهوم قومى عنصرى ، فهم يرون ان الحرية انما تطبق كقانون للجنس الأبيض وحده ، ويرفض الغرب تطبيقها كقانون للبشرية كلها ، وهذا هو عكس ما يدعو اليه الاسلام حيث يفرض العدالة تحت اسم الاخاء الانسانى ومع اسقاط القبلية والعنصرية والاستعلاء بالدم .

ثانيــا : ـــ

اكتشفوا ان الغرب غاصب ، طامع فى السيطرة على الموارد دون ان يقدرها قدرها الحقيقى ، ناظرا اليها نظرة غير انسانية فى استعلاء صاحب السيادة والقوة مع ادعاء بأنه يحمل امانة تحضير المتخلفين .

ثالثــا : ـــ

اكتشفوا ان الغرب لا يحترم القيم الانسانية ولكنه

يحترم القوة ، وانه يحول بين المسلمين وبين امتلاك هذه القوة ويسمح لهم بالحصول على اسباب الترف والتحلل وجوانب الحياة المنحرفة والمدمرة للنفوس والأجساد والمضللة للعقول والقلوب .

وفى ست قضايا كبرى غيرت القوى الاستعمارية مفاهيم المسلمين : فى القانون والاقتصاد والسياسة والتعليم والقومية والمجتمع والمراة .

ففى القانون فرضت القانون الوضعى وحجبت الشريعة الاسلامية ، وفى الاقتصاد سيطر النظام الربوى المصرفى بشطريه الراسمالى والماركسى ، وفى مجال السياسة سيطر النظام الغربى الديمقراطى الليبرالى على المسلمين . وفى التعليم سيطرت مناهج الغرب فى التعليم على أصول التربية الاسلامية وفى مجال العروبة سيطرت مفاهيم القومية الضيقة والاقليمية والوطنية والعنصرية والعالمية على مفهوم الاخاء الاسلامى الأصيل ، وفى مجال المجتمع والمراة سيطرت مفاهيم المدرسة الاجتماعية الغربية القائمة على المادية والتحلل والاباحية والفصل بين الدين والمجتمع وبين المجتمع والأخلاق.

ونجدنا الآن بازاء اخطار بالغة تهدد الفكر الاسلامى عن طريق التغريب والغزو الثقافى الغربى تستمد جذورها من الفكر اليونانى الاغريقى الوثنى خاصة فيما دعا اليه (افلاطون) فى الجمهورية من جعل السلطة فى يد طائفة من الناس يتميزون بالدم الخاص ويتصاهرون فيما بينهم ويلدون اطفالهم بصورة جماعية ثم تربيهم الدولة محافظة على سلامة الجنس الممتاز وما ردده ارسطو بعد افلاطون من تقسيم المجتمعات الى سادة وعبيد ودفاعهما عن الرقيق وما أورده سقراط من

مفهوم خطير يقوم على الانحراف الخلقى مما صبغ الحياة الفكرية والاجتماعية اليونانية بطابعه ثم انتقل الى الفكر الغربى الحديث . ومن الحق ان الفكر الاسلامى يعارض هذه المفاهيم ولا يقرها ، ولكن مذاهب متجددة ظهرت فى الفكر الغربى اخذت تصوغ هذه المفاهيم بأسلوب جديد تحت اسم الحرية وتحت اسم حرية الفكر وتحت اسم حرية العلاقات الاجتماعية وانكار الأسرة واحتقار الابوة وما تتميز به كتابات فرويد وسارتر ودوركايم .

وهكذا يواجه المجتمع الاسلامى اليوم تحديات خطيرة ، ومعضلات قاسية ، نقلت الى افقه من مجتمع غير مجتمعه ومن فكر له منطلقاته ومفاهيمه وعقائده ، ومن شأن هذه التحديات أن تؤثر أثرا بالغا فى النفس الاسلامية من حيث الايمان والالحاد ومن حيث التقوى والاباحة وتحاول فى مجموعها ان تنكر المسئولية الفردية وان تغرى الانسان المعاصر بأنه غير مسئول ولا محاسب . ونحن ازاء هذه المحاولات على رأى واضح ومنهج محدد هو اننا نمتلك الارادة الخاصة التى سنحاسب على كسبها ونلقى جزاءها ، وان الاسلام قدم للبشرية مفهوما واضحا صريحا لمسئولية الانسان وكسبه وجزائه الأخروى ، ورسالته فى الحياة بوصفه مستخلفا لاقامة المجتمع الربانى فى الأرض ، ولا علينا من النظرية الغربية الوافدة التى هى من صنع قوم آخرين أقاموها على مقياس مجتمعهم ، وابتدعوها فى ظل تحدياتهم التاريخية وخصومتهم لتفسيرات الدين التى دفعتهم الى الانفصال عنه والتماس الحلول من الفلسفات وحدها .

ولقد جاءت تبعية المسلمين للفكر الغربى نتيجة السيطرة الاستعمارية والنفوذ الاجنبى الذى فرضه على التعليم

والصحافة والثقافة ، ولم تكن هذه التبعية اتجاها طبيعيا من المسلمين والعرب ولا رغبة اصيلة فيهم ، وانما فرض هذا الأمر قسرا وغصبا فى ليل الاستعمار الطويل وظلت هذه القوى تردد تلك الأباطيل حتى تلقتها أجيال بعد أجيال وكأنها مسلمات .

ولكن الفكر الاسلامى بأصالته الربانية وجذوره الممتدة فى التربة خلال اربعة عشر قرنا وقيامه على الفطرة كان قادرا دائما حتى فى أشــد مراحل التخلف والضعف على المحافظة على ذاتيته والحيلولة دون انصهاره فى الفكر الأممى والعالمى .

ذلك لأن مقوماته الاصيلة وقيامه اساسا على التوحيد الخالص قد حال دون هذا الانصهار ، واستطاع مقاومة هذا الاحتواء ، وعلى المسلمين أن يتنبهوا الى هذه المخاطر التى تواجه فكرهم والتى تحاول القوى (الاستعمارية — الصهيونية — الماركسية) اعادة صياغتها فى نظريات براقة تدور حول العقيدة والنفس والاخلاق وتحاول من خلالها تدمير مقومات المسلمين والعرب .

ولا بد أن تواجه النفس الاسلامية فطرتها واصالتها وان تلتقى مع مناهج الاسلاموحلوله التى تدمها فى مختلف القضايا والمعضلات ، هذه المناهج القادرة على اعطاء البشرية هداها ونورها وازاحة ما تعيش فيه من قلق وضياع وغربة مما تطرحه الفلسفات المادية وتروج له .

رابعــا :

الواقع اننا امة ذات حضارة متميزة وذات اصول فكر له طابعــه الخاص ، وقد دعينا الى المحافظة على ذاتيتنا

الاسلامية الخالصة فلا نخلطها ابدا بغيرها وعلينا ان نصــدر عنها وحدها ، ولقد كان جهاد ابرار علمائنا ونوابغنا على مدى العصور منصبا على حماية هذه الذاتية والحيلولة دون انتقاصها ، بوصفهـا الطابع الربانى المصــدر ، الانسانى الوجهة ، حتى لا تذوب فى الأممية ولا فى مذاهب أهل الكتاب والاديان او النحل الضالة .

لذلك فنحن لا نقبل أن تكون مناهج العـلوم المادية صالحة لدراسة الانسان ولا ما يتصل بالنفس والاخـــلاق والمجتمع ، ذلك أن الانسان مادة ونفس ، وجسد وروح . ولذلك فان كل محاولة لتطبيق هذه المناهج المادية عليه فانها لا تستطيع ان تقدم الحقيقة ، حقيقة الانسان الجامع بين الجسم والروح والعقل والقلب .

ونحن نعرف أن « ذاتية المسلم » المتميزة هى اليوم هدف من أهـداف التغريب والغـزو الثقافى والأيدلوجيـة التلمودية المستترة وراء عديد من المذاهب النفسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولذلك فنحن نفهم « الاصالة » على انهـا التميز والتفرد غير المنغلق ، القادر دائما على أن يقف على قاعدته الصلبة ، ويواجه الجديد فيأخذ منه ويدع ، ولا يضيف الى ذاتيته الا ما يزيدها قوة ، ولكل أمة روحها الخاصة وطابعها المميز ، هذا الطابع الذى لا يجوز التســاهل فيه مهما بدت صيحة التقدم والحداثة والمعاصرة براقة لامعة ، ولقد استطاعت أمتنا عن طريق قاعدة « التوازن » الاسلامية المستمدة من منهج القرآن نفسه ان توائم بين الاصــالة والمعاصرة دون ان تسقط فى هوة التبعية التى تحاول قوى النفوذ الاجنبى ان تجرها اليها ، فالاصالة ليست فى مفهوم الاسلام جمودا على القديم ولا اندفاعا وراء الجديد ، ولكنها

قدرة على الأخذ والعطاء فى اطار المنابع الاصيلة ، وليس التجديد فى حقيقته تسليما مطلقا بكل ما يظهر من اتجاهات فى الثقافة او الادب وانما هو ما ينبع عن حاجة حقيقية بعيدة عن الأهواء والمطامع والمغريات التى تعمل على هدم الشخصية الاسلامية أو افسادها أو القضاء على كيانها أو زلزلة قيمها الأساسية . ومن هنـا تظهر الاصالة وهى مكملة للتجديد ومتصلة به ، لا متعارضة معــه . ونحن نعرف أن الأمة الاسلامية لو تركت وشأنها لاختارت طريقا سليما قوامه مواءمة كاملة بين القيم استمدادا من طبيعة المنهج الاسلامى القائم على التكامل والترابط وليس على الانشطارية .

ولكن قوى التغريب والغزو الثقافى كانت دائما تركز على الجوانب الضعيفة والمتشابهة لتخلق صراعا أو تناقضا أو التباسا يحول دون قيام وحدة الفكر الجامعة . وبذلك تضطرب قضايا المحافظة والتقدم والاصالة والتجديد .

خامسـا :

علينا ان نعرف واجبنا تجاه هذه الاجيال الشابة الجديدة التى تلقت مفاهيم الحياة عن مسرحيات التلفزيون وروايات الشاشة ، والتى تواجــه الحيــاة وكأنها لعبة أو تسلية أو ساحة هزل وضحك ، ويلبسون ما يشاءون ويتحدثون كما يشاءون ، كأنما ليس فى هذه الحياة الا المتعة واللعب واللهو . هذه النظرة المنحرفة الى الحياة التى لا تقدر المسئولية الملقــاة على عاتق الانســـان ولا الأمانة المنـــوطة به ، وهى النظرة التى طرحتها تلك الأهواء التى تحملها الحضارة المادية والتى تكاد تعزل شبابنا عن المفهوم الحقيقى للحياة . والرسالة الصحيحة للانســـان فى الحيـــاة البشرية ليست

فى الحقيقة لعبة ولا لهوا وليست مراحا يمضى فيــه الناس كما يشاءون ساعات لاهية فى شراب أو لهو ثم نوم ثقيل ، وحركة كسولة وطعام مسبوك . بل الحياة مسئولية وجد وأذان يؤذن للوقت حينما يحل بحيث يعرف الانسان أن وقته محسوب وانه محاسب عليه . فالانسان الساذج البسيط الذى يأخــذ الحياة على أنها متــاع وترف وحديث طويل وسهرات وضحكات وأهواء انما يعبث بأعز ما يملك ويدمر شخصيته وينسى مسئوليته فى الحياة .

وعندما تهزل الحياة وتدخل مراحل التراخى والترف والتحلل تنشــغل الأمم بالاســاطير والقصص والروايات والاحاديث الواهية الخرافية ، تبحث عن ذلك الركام المدفون الفاسد لتجدده وتلذ به . هذا القديم الذى كان لعصره يوم كان عصره قاصرا عن فهم الواقع الحى وعن فهم الحياة ، ومنحرفا عن رسالة الرســل ، وكلما جاءت الحقيقة الربانية جيــلا بعد جيل ، عن طريق الأنبياء والرسل ، كانت تقضى على هــذه الأساطير والخرافات وتنهى وجودها ، ولكن البشرية كانت سرعان ما تعــود الى الأساطير ، وأهواء النفس ، ولما جاء الاسلام انهى طفولة البشرية ، وبدأ عصر الرشد الانسانى ، ولكن قوى النفوذ الأجنبى ما تزال تتشبث بذلك الركام لتعيــد الانسانية مرة أخرى الى طفولة البشرية ، ولتنسى ما أعطى لها من منهج الحق والخير . فهل البشرية حقا لا تريد أن تسلم وجهها الى الله وتريد أن تعود القهقرى الى الأساطير والخرافات والوثنية انسلاخا من الواقع الحى الصحيح واخلادا الى الأرض الموات ، وهروبا من الحقائق المضيئة التى تضــع الانسان امام وجوده وسعيه وكدحه ارتدادا الى الخواء والاسترخاء والغفلة والبعد عن التفكير

والتأمل فى صنع الله . ولقد جاء الاسلام داعيا الى التفكر والتذكر ، وتركيز الحواس فى الحياة عملا وانتاجا وسعيا ، ولكن الانسان فى هذا العصر يريد أن ينحرف عن طريق الحق الى الترف والاسترخاء والتحلل هربا من مهمته ومسئوليته .

سادسا :

ان اخطر ما يقضى على الأمم هو الامن والاحساس بالتوقف عن مواجهة التحدى ، والغفلة عن الحذر الدائم الذى يجب ألا ينتهى أبدا ازاء خطر الأعداء المتربصين بالمسلمين الدوائر .

ولقد كان مصدر الأزمات الاسلامية الكبرى فى تاريخ الاسلام هو هذا الأمن والغفلة عن الاسلحة والاستنامة ازاء الخطر ، فالحذر أصل أصيل فى حياة الأمة الاسلامية وجزء لا يتجزأ من كيانها ووجودها فاذا غفلت عنه فقد آن لعدوها أن يصرعها بالغزو والتسلط والاحتلال .

ولقد كانت أكبر معارك المسلمين فى مواجهة هذا الخطر ، وكان الأمن الذى عرفه المسلمون فى بغداد عام ٦٥٦ هو مقدمة الغزو التترى ، وكان الأمن الذى عرفه المسلمون فى تلك المفازة التى تصل بين الدولة الرومانية وبين بلاد المسلمين هو مقدمة الحروب الصليبية ، وكان الأمن الذى عرفه المسلمون فى الأندلس هو مقدمة انقضاض الاسبان والبرتغال عليهم واستذلالهم .

ولقد ولدت أجيالنا فى ظل الاستعمار الذى سيطر على العالم الاسلامى منذ أكثر من مائة عام ومازلنا نعيش

هذا الخطر ، ولقد خيل الى البعض أن خروج الاحتلال وتحرير الأوطان هو مقدمة لمرحلة من الامن جديدة ، غير أن الاحتلال الصهيونى لفلسطين وبيت المقدس مازال يشكل تحديا خطيرا سيظل يواجهه المسلمون والى سنوات طويلة .

ولذلك فان من الخطـأ أن يتصـور المسلمون أنهم يستطيعون أن يعيشوا حيـاة الأمن وأن يتوقف الحـذر ، فان ذلك سيكون منذرا باجتياحهم من قوى عديدة تتربص بهم.

ولا يمكن أن يقال أن فى امكان المسلمين أن يعيشوا فى الأمن ، بل سيعيشون حياتهم كلها فى مواجهة الخطر ، وفى حالة الحذر ، وفى رباط دائم . ولا زال الاسلام منذ أن بزغ فجره يمثل هذه القوة التى تجتاحها القوى وتواجه التحدى ، نظرا لموقعهـا الجغرافى ومركزها الاستراتيجى ، ومكانتها الاقتصادية ، ونظرا لأنها تحمل رسالة التوحيد والعـدل والاخاء البشرى ، ازاء عالم يجيش بالأحقاد والصراع والتسلط والسيطرة .

لذلك فقد كانت كل القـوى تحاول أن تتجمع لتحطيم هذا الكيان ، ومن هنا كان على هذا الكيان أن يكون قادرا على الثبات فى وجه الأعاصير والصواعق ، ومن هنا جاءت كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم الحاسمة التى تؤكد أن هـذه المنطقـة فى رباط الى يوم القيامة وانهم خـير أجناد الأرض .

وحين يحاول الباحثون والمفكرون مراجعـة التـاريخ للبحث عن مصـدر التخلف الذى أصاب المسلمين والهزيمة

التى لحقت بهم ، نجـد أن ذلك يتركز فى مصـدر واحد ، هو أقوى من كل المصادر ، ذلك هو فقدان الحذر والاستسلام الى الأمن وتهـاوى الارادة الحاسمة فى مواجهـة الخطر . وفى الغرب بالرغم من فساد الأيدلوجيات ومعارضتها للفطرة فان الغرب يواجه الاحساس الدائم بالتحدى ويعمل دائما فى مواجهة الخطر ويوائم نفسه فى يقظة تامة مع الظروف والأحـداث . فهم بالرغم من باطلهم لا يستسلمون للهزائم المتعددة والضربات المتوالية ، ولا يفقدون قدرتهم على العمل ولا ارادتهم على البقاء والمواجهة للاخطار ، ولا يحسون يوما بالأمن أو الاستسلام . فلماذا لا يفعل المسلمون وهم أصحاب الحق وحملة اصـدق رسالة مثل هـذا ، ولماذا لا يثبتون على حقهم ولا يصمدون فى مواجهة الزعازع والأعاصير ؟ ولماذا يفقدون ارادتهم ازاء العمل والتغيير ويجنحون الى الأمن والرخاوة والاستسلام فيفقدون مكانهم .

سابعـا :

كذلك فان المسلمين اليـوم يواجهـون نفس الأزمة التى عرفها الفـكر الاسلامى بعـد ترجمة الفكر اليونانى والفارسى والوثنى ، ولكن الأزمة اليوم أشد عنفا وضراوة . ذلك أن المسلمين قد ترجموا الفكر الوافد بارادتهم الخاصة وحملوا منه ما حملوا ورفضوا ما رفضوا ، أما اليوم فقد فرضت عليهم آثار هذا الفكر فرضا ، وحملت اليهم الآثار المتضاربة حمـلا ، وطرحت فى أفق فكرهم بعنف ، فضلا عن أن هـذه الفلسفات المتباينة ، مرت فى الغرب مرحلة بعـد مرحلة وكانت منوعة بعضـها فى فرنسا وبعضـها فى انجلترا وبعضها فى المانيـا ، وتداولتها الأزمنة ، فلسفة مسيحية ففلسفة مثاليـة ففلسفة مادية ففلسفة ماركسية

بينها آماد واسعة وسنوات فاصلة ، ولكنا نجد انفسنا اليوم وقد أغرقتنا طوفان هــذه الفلسفات جميعــا ، لا فرق فيها بين المثــالى والمادى ، ولا بين الاقتصــادى والوجودى ، ولا بين ما يتصــل بالأدب والفن او ما يتصــل بالسياسة والاقتصاد . ولذلك فان الأمر يتطلب مواجهة حاسمة وصبرا عميقا وجهدا ضخما . اذ يتصل الأمر بذلك الرعيل من شبابنا الذى يتعرض اليوم لأخطر التحديات النفسية والاجتماعية حيث يظن أن هذه الفلسفات حقائق علمية بينما هى تجارب وفروض لم تصدق حتى فى مجتمعاتها ، يراد الآن ان يتخذها بديلا لمنهج الاســلام فى بساطته ويسره وأصالته وارتباطه بالفطرة .

ومن هنا تبدو مهمة المثقف المسلم ، والمفكر المسلم ، وهى عسيرة غاية العسر فى حاجة الى مزيد من العمل والصبر والاستعانة بالله لكشف الغمة .

ولقد عاش المفكرون هذه التجربة وانفقوا منها قرنين كاملين بعد محنة الترجمة حتى استطاعوا تصفية هذه التركة الثقيلة وتحرير الفكر الاسلامى منها والتجمع حول مفهوم اهل السنة الجامع بعــد أن صهروا فيــه ما استخلصوه من الثقافات الوافدة واخضعوه لمفهوم التوحيد . لقد ظل الفكر الاسلامى منــذ فجره الى اليوم والى أن يرث الله الأرض ومن عليها متمثلا أصالته وذاته وارادته ولم (ولن) يستسلم للنظرية الوافدة أبدا . وسيظل يقاومها بكل ما يملك من قوة : ذلك لأن الاسلام انما هو ذلك المنهج الربانى المخالف للفكر البشرى فى زيوفه وأهوائه ومنازعاته .

ومن هنــا يبدو الخطر الواضــح من تلك المحاولات

الرامية الى احتواء الفكر الاسلامى بالتغريب أو صهره بالغزو الثقافى أو تذويبه فى أتون الفكر البشرى باسم العالمية أو الأممية .

لقد رفض الفكر الاسلامى مبدأ التقليد ومبدأ التبعية وقرر أن التقليد يمنع من الأصالة وأن المعرفة التبعية ليست معرفة حقيقية .

ولقد كانت ولا تزال للفكر الاسلامى خصائصه العميقة الثابتة القادرة على أن تأخذ حاجتها من كل ما يقدمه الفكر البشرى دون أن يشكلها أو يغير طابعها أو يحتويها .

ثامنا :

ان المعنى الذى يحاول التغريب والغزو الثقافى عن طريق الاستشراق والتبشير اسقاطه من النفس المسلمة هو أن الاسلام عقيدة وتربية ونظام مجتمع ومنهج حياة . وانه ربى اتباعه على العزة الكاملة وانه لم يقبل الضيم يوما ولم يسمح لأهله الرضا بالذل ولا مساندة الخضوع ولا اعانة العبودية . بل رباهم على الكرامة والاعتزاز بأنفسهم فلا يتعبدون الا لربهم ولا يحنون الجباه الا له وحده جل شأنه وانهم خلقوا ليفرضوا وجودهم باسم الله فوق البسيطة وينتزعوا مكانهم تحت الشمس .

فلم يكن الاسلام حليف الطغيان ولا حليف الظلم ولا حليف الاستبداد . والاسلام هو الذى حرر المسلمين والعرب من رق الدول المستعمرة وقاد حركات المقاومة جميعها تحت مختلف الأسماء الوطنية والقومية فى وجه الدول ذات العدة والعدد .

ولم يكن لهم فى ذلك من سند غـــير الله . وحق على المسلمين اليوم بعـــد أن حررهم الاســـلام أن يقيموا دولته ويرفعوا رايته واذا كان الاسلام فى ابان الاستعمار عامل تحرر فانه اليوم عامل تقدم .

تاســـعا :

ان القوى المعادية للاسلام ما تزال تضرب بمعاولها فى الجدار ، تحاول أن تسرب مياهها تحت الأساس ، تضرب فى جدار اللغة العربية والشريعة الاسلامية والعقيدة والثقافة والحضارة والتعليم . تريد أن تعلى شأن العامية والحروف اللاتينية من ناحيـــة والاقليميات من ناحية أخرى والقانون الوضعى من ناحية ثالثة ، وافساد عقيـــدة التوحيد بخلق تيارات باطنية ومادية ووثنية جديدة . وحيث تحاول المناهج العلمانية ان تتحكم فى نظم التربية واساليب التعليم وفرض فلسفات ومناهج ودعوات مادية باطلة ، ومن واجب قادة فكر امتنا أن يعملوا على دحر هذه التيارات والقضاء عليها .

عاشرا :

شرط اى اصلاح او تجديد او تطوير ان يبدأ من الواقع القائم ، تصحيحا للمفاهيم التى انحرفت أو تحـــريرا للقيم التى اضطربت . ومن هنا فقد كان على المصلحين أن ينطلقوا من أرض الواقع الصلبة فى مواجهة الأوضـــاع التى تحتاج الى مراجعة واعادة نظر ، ومن أجـــل دفع مسيرة اليقظة الاسلامية الى الأمام على الطريق الصحيح .

ومن هنـــا فقد كان من الطبيعى أن نقول « نعم » فى مواجهة النهضة والتقـــدم على أن تكون النهضة ويكون

التقدم جامعا للقيم المعنوية والمادية جميعا والا يكون على حساب القيم والأخلاق أساسا ومن هنا فعلينا أن نقول : (نعم ولكن) ان طبيعة الاسلام كدين ونظام مجتمع معـا وكعبادة ومنهج حياة معـا انه يفتح الطريق الى النهضة والتقدم واقامة الحضارة الأصيلة ، التى تحفظ للشخصية الاسلامية ميزتها ومعالمها وكيانها ومقوماتها دون أن تذوب فى شخصية أمة أخرى أو تنصهر فى حضارة أخرى .

فنحن فى مجال العلوم والمعرفة نجد من حقنا أن نأخذ مستحدثات الاختراع والابتكار لتحسين مجتمعنا وترقيته ، ولكنا فى مجال العقائد والفكر والثقافة لا بد لنـا أن نحتفظ ونلتمس المنـابع ونبنى على الأسـاس ونستملى التراث حتى لا نفقد ذاتيتنا وكياننا .

انور الجندى

* * *

دار العلوم للطباعة

القاهرة، ٨ شارع حسين حجازى (القصر العينى)
ت، ٣١٧٤٨

رقم الايداع بدار الكتب ٤٩٣٠/٧٨
الترقيم الدولى ٣ — ٣٨ — ٧٣٠١ — ١٩٧٧